سودانيون في أمريكا وكتبهم

محمد علي صالح



مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : سودانيون في أمريكا وكتبهم

المـــــؤلف : محمد علي صالح

رقـم الإيداع :

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الطبعة الأولى ٢٠١٣

مقدمة

منذ سنة ١٩٨٠، أعمل صحافيا متفرغا في واشنطن، مراسلا لعدد من الصحف والمجلات العربية الرئيسية في الشرق الأوسط. عندما جئت لواشنطن في ذلك الوقت، كان عدد السودانيين فيها قليلا جدا. كانوا خبراء في البنك الدولي، وصندوق النقد العالمي، ودبلوماسيين في السفارة السودانية، وعاملين في السفارة.

وكان من بين العاملين في السفارة صديق عبد الرحيم، الذي عرفته لسنوات كثيرة منذ قبل أن أراه. منذ سنة ١٩٥٣، وأنا في السنة الثالثة في مدرسة أرقو الأولية (على نهر النيل، محلية دنقلا، الولاية الشمالية). «عرفته» في حصة الجغرافيا، والرحلات الخيالية التي كان يقودنا فيها الأستاذ عثمان أحمد خليفة إلى أماكن مختلفة من السودان لزيارة «أصدقاء». وكان الهدف من المقرر هو دراسة مناطق مختلفة، وعادات مختلفة، وسبل مختلفة لكسب العيش.

اعتمد الأستاذ على كتاب «سبل كسب العيش في السودان»، واحد من ابداعات كلية التربية في بخت الرضا التابعة لوزارة المعارف السودانية في ذلك الوقت، بقيادة أساتذة بريطانيين (في ذلك الوقت، كان السودان مستعمرة بريطانية). ساعد هؤلاء البريطانيون الجيل الأول من الأساتذة السودانيين الذين درسوا في بريطانيا، ثم عادوا إلى السودان لخدمة وطنهم. ومنهم: د. عبد الرحمن على طه، ود. عبد الله الطيب، ود. أحمد الطيب.

كان أول «صديق» في كتاب مقرر الجغرافيا هو:«صديق عبد الرحيم، صديقنا في القولد.»

وجها لوجه:

في سنة ١٩٨٠، بعد قرابة ثلاثين سنة، قابلته وجها لوجه لأول مرة في السفارة السودانية في واشنطن. كان كبر، وشاب شعر رأسه. وبادرت، وقرأت له النشيد الذي كنت حفظته عنه بعد «زيارته» في القولد: «في القولد التقيت بالصديق. أنعم به من فاضل صديق. خرجت أمشي معه للساقية. ويا لها من ذكريات باقية. وكم أكلت معه الكابيده. وكم سمعت أورو وو أودا.» (الكابيدة أكلة شعبية في منطقة النوبة في شمال السودان. والغناء بلغة النوبة عن الساقية).

أيضا، من الذين قابلتهم في واشنطن في ذلك الوقت، وكانوا يعملون في البنك الدولي أو صندوق النقد العالمي: د. الوليد محمد طه الملك، من عائلة الملك في أرقو (عاصمة ملوك الدناقلة التاريخية). ود. الرشيد عثمان خالد. والطيب حسب الرسول.

ومن الذين سبقوني في واشنطن وكانوا يعملون في البنك الدولي: مأمون بحيري، وزير المالية في حكومة الفريق إبراهيم عبود (وأنا طالب في جامعة الخرطوم). وحمزة ميرغني حمزة، وزير المالية في حكومة الصادق المهدي الأولى (وأنا طالب في جامعة الخرطوم). ود. فريد عتباني، أستاذي في كلية الاقتصاد في جامعة الخرطوم (قبل أن ينتقل إلى البنك الدولي).

في سنة ١٩٨٠، عندما جئت إلى واشنطن، من أساتذة الجامعات الأمريكية السودانيين الذين قابلتهم: د. أحمد الأمين البشير، جامعة دي سي (واشنطن). ود. عبد العزيز بطران، جامعة هوارد (واشنطن). ود. إسماعيل عبد الله، جامعة وليام أند ماري (ولاية فرجينيا). طبعا، في وقت لاحق، زاد العدد.

اهتماماتي السودانية:

منذ أن جئت إلى واشنطن سنة ١٩٨٠ ولسنوات كثيرة، لم أكتب عن السودان. لأني، طبعا، ابتعدت عنه، ولأن عملي تركز على تغطية أمريكا.

لكن، زاد اهتمامي بالسودان بعد هجوم ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١. بعد إعلان الرئيس السابق بوش الابن ما تسمى «الحرب ضد الإرهاب». خلال السنوات التالية، وخاصة بعد غزو أمريكا للعراق، اقتنعت بأنها:

أولا: حرب غير مباشرة ضد المسلمين، أن لم تكن ضد الإسلام.

ثانيا: جزء من صراع تاريخي، وابدي، بين الغرب المسيحي والشرق المسلم.

وخلال السنوات التالية، اقتنعت بأن سياسة الحكومة الأمريكية السلبية نحو السودان، جزء من هذه «الحرب ضد الإرهاب.» وأن خوف الأمريكيين من الإسلام (إسلاموفوبيا) ليس فقط داخل أمريكا، ولكنه، أيضا، في السياسة الخارجية.

وبالنسبة للسودان، هو خوف من زحف الثقافة الإسلامية العربية إلى جنوب السودان. جزء من خوف أكبر من زحف الثقافة العربية الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء (صراع عمره مئات السنين، غير مباشر، بين الغرب المسيحي والشرق المسلم).

وهكذا، بعد هجوم ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١، كتبت ونشرت حلقات «سودانيون في أمريكا»، وحلقات «وثائق أمريكية عن السودان (من الإستقلال وحتى حكم نميري)»، وحلقات «العلاقات السودانية الأمريكية»، وآخرها حلقات «مقابلات مع سودانيين (شماليين وجنوبين)»، قبيل انفصال جنوب السودان.

«سودانيون في أمريكا وكتبهم»:

«سودانيون في أمريكا» هم عشرون. كلهم حصلوا على شهادات دكتوراه. طبعا، هناك غيرهم حصلوا على الدكتوراه، لكن هؤلاء هم الذين استرعوا انتباهي خلال سنوات كتابة الحلقات (٢٠٠٧-٢٠١٠).

كتبت عن عشرين من حملة الدكتوراه، وركزت على كتبهم أو أبحاثهم التي يزمعون نشرها في كتب. وذلك كأمثلة لنجاح السودانيين المهاجرين في المجال التعليمي، ولمنافستهم للأمريكيين في عقر دارهم. (ربما في المستقبل، إن شاء الله، سأكتب عن الناجحين في مجالات التجارة، والفنون، والرياضة، والخدمات، وغيرها).

وأيضا، كتبت عن هؤلاء العشرين دكتورا كجزء من النقاش الفكري في القضايا الآتية، وهي قضايا عالمية وحضارية، ولا تقتصر على السودانيين:

أولا: محاسن ومساوئ الحضارة الأمريكية.

ثانيا: هجرة العقول من العالم الثالث إلى أمريكا.

ثالثا: مشاكل الجيل الأول من المهاجرين، خاصة محاولة الجمع بين ثقافتين مختلفتين، وأحيانا متناقضتين.

رابعا: الجيل الثاني، أولاد وبنات المهاجرين إلى أمريكا.

والحمد لله، خلال العشر سنوات الأخيرة، زاد كثيرا عدد المهاجرين السودانيين، خاصة بسبب اللوتري واللجوء السياسي. ويقال إن العدد قارب ربع مليون. وأنه في منطقة واشنطن وحدها يوجد خمسة عشر ألف سوداني تقريبا.

هذه ظاهرة جديدة وهامة لمهاجرين من بلد لم يتعود مواطنوه على الهجرة إلى الخارج، ناهيك عن الهجرة إلى أمريكا البعيدة.

لهذا، أنوي أن انظر إلى ما وراء جيل المهاجرين هؤلاء، إلى ما وراء «سودانيون في أمريكا». أنوي أن أكتب، إن شاء الله، عشرين حلقة عن الجيل الجديد من السودانيين في أمريكا، تحت عنوان: «سودانيون في أمريكا: أولادهم وبناتهم».

أول مهاجر سوداني:

لا أعرف كثيرا عن ما قبل جيل الكبار الحالي. عن، مثلا، أول سوداني هاجر إلى أميركا. لكن، كتبت د. رقية مصطفى أبو شرف، الأستاذة السودانية في جامعة كورنيل الأمريكية، في تفصيل عن هذا الموضوع في كتابها بالإنجليزية: «تجولات: مهاجرون ومنفيون سودانيون في أمريكا الشمالية.»

كتبت أن أول سوداني هاجر إلى أمريكا كان ساتي ماجد، في سنة ١٩٠٤. دنقلاوي ولد في الغدار، جنوب دنقلا قليلا (أرقو، التي ولدت فيها، شمال دنقلا قليلا). هاجر، بعد أن درس الإسلام واللغة العربية في الخلوة، إلى مصر، والتحق بالأزهر الشريف (حاليا: جامعة الأزهر).

وهاجر مرة ثانية إلى بريطانيا. وعمل لأربع سنوات في الدعوة للإسلام. وأيضا، في تعلم اللغة الإنجليزية.

وهاجر مرة ثالثة إلى الولايات المتحدة. وقضى خمس وعشرين سنة في الدعوة للإسلام، وخاصة وسط السود. وقابل زعيم المسلمين السود في ذلك الوقت، نوبل درو علي، وحاول هداية الرجل الذي كان عين نفسه نبيا، وكان يحمل ما أسماه «القرآن الجديد».

بعد وفاة «النبي»، قاد المسلمين السود فار محمد، الذي أسس «نيشن أوف إسلام» (أمة الإسلام) التي لا تزال تجمع حتى اليوم المسلمين الأمريكيين السود. لكن فار أيضا أخطأ في تفسير الإسلام، وربطه بلون الزنوج الأسود وبكراهية البيض. وخلفه إليجا محمد، وكان مثله.

لكن، خلف هذا ابنه وارث الدين محمد، الذي قلل التطرف، وبدا يسير علي طريق الإسلام الصحيح. قابلته أول مرة في سنة ١٩٧٨ في مكة المكرمة. وكان ذهب للحج، لأول مرة، بدعوة من الحكومة السعودية كجزء من حملة ناجحة لإنهاء تطرف «أمة الإسلام».

في سنة ١٩٢٩، عاد السوداني سآتي ماجد إلى مصر، بعد أن ساهم في نشر الإسلام في أمريكا، وخاصة في اعتدال «أمة الإسلام» الحالي. ثم عاد إلى السودان حيث عمل في الدعوة للإسلام في الخرطوم. ثم عاد إلى بلدته الغدار حيث توفي سنة ١٩٦٣.

ملاحظات:

وأخيرا، هذه الملاحظات:

أولا: لا يعتمد ترتيب الشخصيات في هذا الكتاب على نمط معين. أحيانا، حسب تواريخ المقابلات معهم.

ثانيا: يوجد في نهاية كل حلقة تحديث قصير، لأن أغلبية هذه المقابلات كانت خلال السنوات ٢٠٠٧-٢٠١٠.

ثالثا: لأن كل المقابلات كانت قبل تقسيم السودان (سنة ٢٠١١)، لا توجد آراء هؤلاء السودانيين عن هذا الموضوع.

رابعا: تشمل المقابلات اثنين من الجنوبيين: د. جوك مادوت جوك، الذي أيد الانفصال قبل سنوات من تحقيقه. ود. فرانسيس دينق، الذي عارض الانفصال ثم قبله على مضض.

خامسا: اطلع كل شخص علي التقرير الخاص به، وبعضهم أجرى تعديلات، وكل واحد أجاز تقريره قبل نشره.

سادسا: شملت المقابلات سوادنيتين أستاذتين في جامعتين أمريكيتين. أنوى، إن شاء الله، إجراء مقابلات مع المزيد من أمثالهن لنشرها في كتاب «سودانيات في أمريكا، وكتبهن.»

محمد علي صالح

contact@MohammadAliSalih.com

سودانيون في أمريكا وكتبهم



وعمل أستاذا في جامعة الخرطوم، ثم زميلا في جامعة نورث ويستيرن الأمريكية، قبل أن يلتحق بجامعة ميسوري.

ومن كتبه عن السودان: «العين الحارة للرباطاب» و «صراع المهدي والعلماء» و «الديمقراطية والثقافة في السودان» و «فرسان كنجرت: تاريخ الكبابيش» و «الشريعة والحداثة» و «النهضة والمقاومة في ممارسة الحزب الشيوعي».

وكتب ويكتب كثيرا في صحف سودانية كثيرة تحت عناوين مثل: «الذي يصلحك» و «لو كنت من مازن» و «مع ذلك.»

«هذيان مانوي»:

ومؤخرا، أصدر إبراهيم كتاب «هذيان مانوي: التجديد الإسلامي والقضائية الثنائية الاستعمارية في السودان.»

وفيه انتقد نقدا شديدا العلمانيين المسلمين. وقال إنهم «رفضوا الاعتراف بسقوطهم.» وقال: إنهم «مثل أغبياء أبرياء، يخدعون أنفسهم بالاعتقاد بأن التطور لا يحتاج إلى تضحيات كثيرة.»

وأضاف: «بدلا من أن يفكروا تفكيرا عميقا في تصادم العلمانية مع الثقافة الإسلامية، لاموا كل شخص إلا أنفسهم على الخيارات السيئة التي اختاروها.»

وقال أن بعضهم «سارعوا بالتنبؤ بقرب نهاية التجديد الإسلامي قائلين بأنه ليس إلا فزعا وخوفا.»

ركز الكتاب على التطورات القضائية في السودان ما بين سنة ١٨٩٨ (عندما غزت بريطانيا السودان، مع مصر، وحولاه إلى مستعمرة بريطانية مصرية، كان دور بريطانيا فيها أكبر)، وسنة ١٨٨٥ (عندما سقطت حكومة الرئيس جعفر نميري العسكرية بعد أن حكمت لست عشرة سنة).

اعتراف بالهزيمة:

وقال إبراهيم إن الكتاب «فرصة لأن اعترف بهزيمتي على أيدي الإسلاميين»، أو ما يسميهم البعض «اليمين الديني». هزيمة بعد قتال طويل ضدهم عندما كنت نقابيا نشطا، وناشرا، وكاتب روايات، وأكاديميا، وصحافيا، منذ أن دخلت جامعة الخرطوم في بداية الستينيات».

وقال إن الكتاب فرصة «لأعيد ثقتي، كحداثي لا ينكر تغربه وراديكالته، في إمكانية تحقيق وجود علماني داخل نظام إسلامي.»

واتهم «العلمانيين المسلمين» بأنهم «فشلوا فشلا واضحا» في تأسيس «تقليد علماني داخل الإسلام.»

وقال إن الإسلاموية يمكن النظر إليها «كامتداد علماني أكثر من أن تكون معادية للعلمانية». وأن التجديد الإسلامي يمكن النظر إليه «كنتاج للوطنية، ومرتبط بها ارتباطا قويا».

وقال أن الوطنية في الدول الإسلامية لم تقدر على التخلص من خلفيتها الإسلامية، و«لم تنجح أبدا في أن تكون علمانية صافية. ولا حتى مجرد علمانية.» وأن قادة الحركات الوطنية استفادوا من الإسلام، وكان هذا مفهوما وسط الشعوب التي تدين بالإسلام (وهي الأكثر تدينا من أتباع ديانات أخرى).

أقسام الكتاب:

قسم إبراهيم الكتاب إلى ستة أقسام:

الأول: بداية القوانين المدنية (البريطانية) التي وضعها البريطانيون. ثم «القانون المحمدي» الذي وضعوه بعد أن تأكدت لهم قوة العقيدة الإسلامية وسط السودانيين، وبسبب إصرار السودانيين على قانون شرعي يحكم قضاياهم الخاصة.

الثاني: **نظامان قضائيان**: تفاصيل مواجهات استمرت أربعين سنة تقريبا بين القضاء المدني والقضاء الشرعي، خاصة مراسلات هامة بين كبير القضاة (الشرعي) والسكرتير القضائي (المدني).

الثالث: **إسماعيل الأزهري** (أول رئيس وزراء في السودان بعد أن نال استقلاله سنة ١٩٥٦) وسياسة «الأذى الأخلاقي»: سنوات ما بعد الاستقلال، وحكم الأحزاب السياسية، وميلها نحو أسلمة القوانين المدنية، والسير وراء شعار «الدستور الإسلامي».

الرابع: **جعفر نميري** (قائد انقلاب عسكري سنة ١٩٦٩، ورئيس السودان حتى ثورة ١٩٨٥) و«العدالة الناجزة»: ست عشرة سنة من حكم عسكري. مال، أولا، نحو اليسار. ثم اعتدل. ثم مال نحو اليمين. ثم مال أكثر عندما أعلن قوانين الشريعة.

الخامس: **محمود محمد طه:** الزعيم الديني صاحب «رسالة الإسلام الثانية» الذي أعدم (خلال حكم نميري) بتهمة الخروج عن الإسلام.

السادس: **حسن الترابي** الذي قاد الإسلاميين فكريا لأكثر من عشرين سنة، حتى أوصلهم إلى الحكم في انقلاب عسكري سنة ١٩٨٩، بقيادة عمر حسن البشير الذي لا يزال يحكم السودان، رغم أنه اختلف مع الترابي.

السابع: **«القضاء الموحد»** الذي أسسته الحكومة الإسلامية الحالية. وبه ختمت مائة سنة تقريبا من المواجهة بين القضاء المدني (الأوروبي)، والقضاء الشرعي (الإسلامي).

الشيوعية والشريعة:

أضاف إبراهيم إلى هذه الفصول التاريخية مقدمة وخلاصة طويلتين (عشرين في المائة تقريبا من الكتاب)، فيها آراء مثيرة، وانطباعات شخصية.

في جانب الانطباعات الشخصية، كتب عن انتقاله من الشيوعية إلى الشريعة. وقال: «استقلت، في سنة ١٩٧٨، من الحزب الشيوعي السوداني، بعد عشرين سنة تقريبا من العمل المكثف الذي آمل أن يكون جديرا بالتقدير. عملت كطالب نشط، وعملت في المجال الثقافي.»

لماذا استقال؟

قال: «انتقدت عدم قدرة الحزب الشيوعي على التغلب على كارثة سنة ١٩٧١»، عندما قاد انقلابا فاشلا ضد حكومة نميري العسكرية اليسارية في ذلك الوقت. بعد فشل الانقلاب، أعدم نميري عبد الخالق محجوب، سكرتير الحزب، و «الشخصية الجذابة، والقارئ الجيد، والمتكلم الجيد.» وأضاف: «نظر الحزب إلى نفسه كضحية، ولا يزال. ومال نحو الغضب المتزايد بدلاً عن التأمل في نفسه.»

ولهذا، فإن «بحث الحزب عن الانتقام قلل من قدرته على أن يعود كحزب سياسي مختلف، كما كان، وفقد رغبته في دراسة نفسه، والعالم حوله. وصار حزبا عاديا يشترك في صراعات الصفوة المميتة.»

والده النقابي:

في نفس سنة استقالة ابراهيم من الحزب الشيوعي، توفي والده. وكان ذلك سبب زيارته للمحكمة الشرعية، لأول مرة، لتسوية ورثة والده. وفتحت زياراته عينيه على شيئين:

أولا، مناظر الفقر والبؤس داخل المحاكم الشرعية. «أطفال منبوذون، وعائلات فقيرة، ونساء أسيرات زوجات لا يقدرن على الخروج منها إلا بإذن من أزواجهن.»

ثانيا: نظرات الاستعلاء من جانب القضاة والمحامين المدنيين للقضاة الشرعيين. مثل عبد الله صالح، محام مدني، وصديق منذ أيام المدرسة المتوسطة في عطبرة، و«شيوعي جيد.» وقال إنه يحمل رخصة المثول أمام محكمة شرعية، لكنه لم يفعل ذلك أبدا.

وسرا، تحسر شيوعي (لم يذكر اسمه) لشيوعي (المؤلف): «يا عبد الله، نحن مع الرجال والنساء الذين لا يحتاجون لمساعدتنا.» لماذا لا نساعد البؤساء الذين ينتظرون من المحاكم الشرعية أن تنصفهم؟

وأثر والد إبراهيم عليه. كان عاملا نقابيا في السكة الحديد في عطبرة. لكنه أصيب بخيبة أمل من مؤامرات النقابيين والسياسيين، «حتى الشيوعيين.» ولهذا، نصح ابنه أن يبتعد عن هؤلاء، وأن يقدم نصائحه «من على منبر جامع». وكأنه يعرف أن ابنه سيترك، يوما ما، الشيوعية ويتجه نحو الشريعة.

الإسلاموية:

هل التجديد الإسلامي (أو «الصحوة الإسلامية»، لكن إبراهيم لا يستعملها) ليست إلا «انتقاما» من سنوات «استعمار الكفار»؟

قال إبراهيم إن تجربة السودانيين مع البريطانيين وقوانينهم «المستوردة» لها صلة بظاهرة التجديد الإسلامي؛ وذلك لأن «الإسلاموية تعتمد على محاولات الذين تخلصوا من الاستعمار للالتصاق بماضيهم الرمزي.» ولهذا، فان «الإسلاموية عمل سياسي مشروع.»

وانتقد إبراهيم فلاسفة أوربيين، مثل ماكس ويبر (ألماني تخصص في الرأسمالية والأديان) ربطوا بين الإسلام وتأخر الشرق.

لكنه اتفق مع فلاسفة أوروبيين آخرين، مثل باسيل ديفيدسون (بريطاني تخصص في إفريقيا)، وقال: «بسبب العار الروحي الذي ألحقه الاستعمار بالمسلمين، يمكن اعتبار الشرعية السياسية الإسلاموية واحدة من الحركات المضادة للاستعمار.»

بل وذهب إبراهيم إلى أبعد من ذلك.

قال: إن الفكرة الإسلاموية صارت، بعد الاستقلال، مخرجا من فساد وظلم الوطنيين الذين حكموا البلاد، وخاصة «الأنظمة الوحشية». وقال: «الإسلاموية مملكة سياسية، أو يوتوبيا، تحولت فيها قضية الحق والباطل إلى علم سياسي للعدل والمساواة.» واستشهد بقول لويس بريزنار (متخصص في الإسلام الإفريقي): «لأول مرة، دخل المسلمون العمل السياسي كمسلمين. نعم، كمسلمين.»

الدين والهوية:

واستشهد إبراهيم بآخرين انتقدوا العلمانيين لثلاثة أسباب:

أولا، أهمل العلمانيون الدين بصورة عامة، ومناقشة التجديد الإسلامي بصورة خاصة. وحذر الأمريكي جون أسبسيتو (مدير مركز الدراسات الإسلامية والمسيحية في جامعة جورجتاون) من «انحياز العلمانيين» عند تحليلهم الإسلام وبقية الأديان. وقال اسبسيتو أن كتابات بعض العلمانيين عن الإسلام صارت «مثل نعي، مثل تسجيل تاريخ شيء يموت.»

ثانيا، أهمل العلمانيون الدين عند تحديد هوية الإنسان. وقال ديفيد كوديل (مؤلف كتاب «نحو نظرية تحليل نفسي قانونية») أن العلمانيين ينظرون إلى دور الدين في حياة الإنسان وكأنه «انحياز يجب أن يوضع جانبا، بدلا من اعتباره دورا لابد منه.»

ثالثا، أهمل العلمانيون الدين في مجالات البحوث الأكاديمية، «حتى لم تعد دراسة الأديان غامضة فقط، بل صارت الأديان نفسها غامضة.» وكتب لويس بريزنار كتاب «الهوية الإسلامية والتغيير الاجتماعي في إفريقيا جنوب الصحراء». وبرهن فيه على عدم نزاهة العلمانيين الذين يكتبون عن الإسلام في إفريقيا.

الإسلام والعلمانية:

في سنة ١٩٦٦ (مع موجات القومية، والوطنية، والاشتراكية، والتقدمية) كتب البريطاني إيان لويس ما يشبه نعيا للفكر الإسلامي في كتابه «الهوية الإسلامية.»

وقال إن زيادة العلمانية في الدول الإسلامية ستؤثر على «التضامن الإسلامي ودور الإسلام في السياسة، وذلك بسبب الاعتراف العام بأن الأهداف والسياسات العلمانية أهم، في العالم الحديث، من القضايا الدينية العامة.»

لكن، بعد ثلاثين سنة، قال إن هذا التحليل: أولا، خطا. وثانيا، لم يتحقق. وثالثا، «تآمري.» وأضاف بأن المسلمين في إفريقيا جنوب الصحراء «تبنوا استراتيجيات جديدة لحماية أنفسهم ولتحديد مواقفهم السياسية لمواجهة التحديات الجديدة التي جاء بها الاستعمار والعلمانية».

الآن، يكتب إبراهيم كتابه هذا ليسير على المراجعة الغربية الجديدة التي تريد، أخيرا، أن تنصف الإسلام في وجه العلمانية. ويخطو إبراهيم خطوة هائلة إلى الأمام في مسعاه هذا. ويقول:

أولا، يوجد خطأ أساسي في تحليل الإسلام بواسطة «صفوة تريد السيطرة على الدولة» و «لها طموحات، وتعاني من اضطرابات نفسية.»

ثانيا، لن تكن الكتابة عن التجديد الإسلامي كاملة ما دامت تهمل «تأثير الدين السياسي على المواطن العادي».

تحديث:

عاد عبد الله على إبراهيم إلى السودان، وبالإضافة إلى مواصلة كتاباته، وتعليقاته، ومحاضراته، وتأليف مزيد من الكتب، ترشح في سنة ٢٠١٠ ضد الرئيس عمر البشير في الانتخابات الرئاسية، لكنه انسحب واشتكى من عدم توفر حرية كافية.

سودانيون في أمريكا وكتبهم



ولد د. عبد الله النعيم في السودان في سنة ١٩٤٦. وفي سنة ١٩٧٠، تخرج من كلية القانون بجامعة الخرطوم ببكالوريوس شرف. وفي سنة ١٩٧٣، تخرج من جامعة كمبردج ببكالوريوس شرف أيضا. وفي سنة ١٩٧٦، تخرج من جامعة أدنبرة بدكتوراه في القانون. وكانت الأطروحة عن الإجراءات الجنائية قبل المحاكمات في القوانين الإنجليزية والاسكتلندية والأمريكية والسودانية.

وعمل لتسع سنوات محاضرا وأستاذا مشاركا في القانون في جامعة الخرطوم. ثم أستاذا زائرا في كلية القانون في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. ثم أستاذ حقوق الإنسان في كلية القانون في جامعة ساسكتشوان في كندا. ثم زائرا في جامعة إبسالا في السويد. ثم لسنة في مكتب مؤسسة فورد في القاهرة. ثم لسنتين مديرا في منظمة «هيومان رايتز ووتش»، في القسم الإفريقي. ومنذ سنة ١٩٩٥، وحتى الآن، أستاذ قانون في جامعة أموري (ولاية جورجيا).

«الإسلام والدولة العلمانية»:

مؤخرا، أصدر النعيم كتاب «الإسلام والدولة العلمانية». واقترح فيه الفصل المؤسسي بين الشريعة والدولة، مع استمرار العلاقة الحيوية بين الإسلام والسياسة. ودعا إلى حوار وتفاوض لتحديد العلاقة بين الدين والدولة في الإطار الخاص لكل مجتمع، وليس بفرض صيغة محددة.

وقال إن جدلية الفصل بين الشريعة والدولة، مع تأكيد ربط العلاقة بين الإسلام والسياسة، يجب أن تكون من خلال التفاعل الاجتماعي على مدى الزمن، وليس بصورة فورية.

وأضاف: «أعتقد بأن للشريعة الإسلامية مستقبلا عظيما في حياة جميع المسلمين في كل مكان.» وأكد ما أسماه «المنهج التنويري» الذي قدمه أستاذه المفكر السوداني محمود محمد طه، خاصة في كتابه «الرسالة الثانية من الإسلام.» (صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٧).

ركزت جامعة أموري، في تقديمها للنعيم، على علاقته مع أستاذه طه، وكتبت: «عندما ترك النعيم السودان سنة ١٩٨٥، آل على نفسه نشر وتطوير الأعمال الرئيسية لأستاذه طه. ونشر كتابه باللغة الإنجليزية سنة ١٩٨٧. وبدأ وضع أسس جدل نظري لشرح إصلاحي للشريعة الإسلامية لتتطابق مع حقوق الإنسان.»

من الكتب التي كتبها: «الدستورية الإفريقية ودور الإسلام» و «نحو إصلاح إسلامي: الحقوق المدنية وحقوق الإنسان والقانون الدولي.» وكتب مع فرانسيس دينغ كتاب «حقوق الإنسان في أفريقيا.» واصدر مؤخرا كتاب «الإسلام والدولة العلمانية».

إعادة النظر في الشريعة:

ولاحظت جامعة ايموري أن هناك جانبين رئيسيين لكتابات النعيم: «من تجربته الشخصية كمسلم من شمال السودان، يجاهد للتوفيق بين دينه وهويته. ومن التزامه بقبول واحترام عالمي لحقوق الإنسان، يريد إحداث التغيير.»

وقالت انه «يريد تحقيق هدفين متقاربين: الأول: فهم ليبرالي وحديث للإسلام. الثاني، الشرعية الثقافية لقيم حقوق الإنسان».

وشرحت الجامعة نظرية طه، التي ركز عليها النعيم. بأنها تعتمد على أن «القرآن و سنة النبي محمد تفهمان في نطاق تاريخي معين. و هذا الإطار يتغير. وفعلا، تغير كثيرا بالنسبة للمجتمعات الإسلامية الحالية. لهذا، يجب أن يعاد النظر في الشريعة ليمكن تطبيقها».

و مؤخرا، حصل النعيم على منحة من مؤسسة فورد الخيرية لإجراء دراسات منها كتابة كتاب «مستقبل الشريعة: العلمانية من وجهة نظر إسلامية».

وهدف المؤسسة هو «مساعدة المجتمعات الإسلامية في تعريف نفسها في نطاق الظروف الدولية التي تعيش فيها، وخاصة العلاقات بين الإسلام والدولة والمجتمع.» و هدف الدراسة هو «الفصل المؤسسي بين الشريعة والدولة، رغم استمرار العلاقة الأساسية والضرورية بين الإسلام والسياسة».

وقرر النعيم أن يكتب كتاب «مستقبل الشريعة» تدريجيا، بترجمة مسودته إلى لغات يتحدث بها المسلمين، ويتلقى الآن ملاحظات على المسودة، تمهيدا لطبع الكتاب بالإنجليزية (من جامعة هارفارد)، ثم باللغات التي يتحدث بها المسلمون.

نقد الحكومات الإسلامية:

في كتابه «الإسلام والدولة العلمانية»، انتقد النعيم الحكومات التي تشرح وتطبق الشريعة الإسلامية. ودعا للفصل بين إسلام الدولة وإسلام الفرد.

و قال: «مستقبل الشريعة الإسلامية يكون في التزام المسلمين بأحكامها بصورة طوعية. بعيدا عن أجهزة ومؤسسات الدولة التي تفسد وتفسد إذا حاولت فرض أحكام الشريعة بالسلطة الجبرية.»

وأضاف: «كل أحكام الشريعة ملزمة للمسلم دينيا، بمعزل على سلطة الدولة الجبرية.»

واشترط النعيم توفر الحرية قبل تنفيذ الشريعة. وأنه «لا يصح العمل بأحكام الشريعة إلا في حرية كاملة، وقصد خالص، وهو «النية» في كل عمل ديني.» وأن هذا ينطبق على المعاملات (مثل تحريم الربا، وشروط البيع)، وعلى العبادات (مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج).

عقائد الحكام:

وانتقد النعيم تأثير عقائد الحكام على سياسات الدول.

وقال: «لا يجوز للدولة أن تدعي قداسة الإسلام وسلطته الروحية. فللدولة وظائفها وأغراضها المعلومة والهامة. ويتعلق هذا بكونها مؤسسة سياسية مدنية. وأيضا، لا يجوز أن ينسب للدولة الاعتقاد الديني، أو النية اللازمة لصحة العمل الديني.»

وأضاف: «يتأثر سلوك القائمين على مؤسسات وأجهزة الدولة بمعتقداتهم الدينية الخاصة. لكن، لا يجعل هذا الدولة نفسها إسلامية. لأن سلوك الحاكم يعبر عن فهمه هو للأحكام الشرعية. وهو مجال اختلاف واسع ومتشعب بين المسلمين على مدى التاريخ» .

وأضاف: «الإسلام هو عقيدة المسلم التي يحاسب عليها حسب صحة علمه وعمله. لكن، تلتزم الدولة باستمرارية العمل المؤسسي في الحكم، والإدارة، والقضاء، وما إلى ذلك من وظائف عامة».

الاتحاد السوفيتي:

وأشار النعيم إلى أن هذه الحاجةُ تتضح من تجارب هيمنة الحزب الواحد على الدولة. وأشار إلى ألمانيا النازية، والاتحاد السوفيتي، وعديد من الدول الإفريقية والعربية خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين. وسواء كانت عقيدة القومية العربية في مصر، خلال حكم الرئيس جمال عبد الناصر، أو كانت عقيدة حزب البعث السوري، خلال حكم الرئيس حافظ الأسد (ثم ابنه بشار الأسد)، أو عقيدة حزب البعث العراقي، خلال حكم الرئيس صدام حسين، صارت الدولة وسيلة مباشرة للحزب الذي أصبح ذراعها السياسي.

وقال النعيم انه، في مثل هذه الظروف، صار المواطنون يتأرجحون بين شقي رحي. الأول هو الحزب، والثاني هو الدولة، بدون أمل في خلاص إداري أو تشريعي من قهر الدولة. وبدون إمكانية معارضة سياسية خارج نطاق سلطانها.

وقال إن فكرة الدولة الإسلامية من حيث هي مرفوضة من مرجعية المنظور الديني الإسلامي. وليس فقط لفشل المحاولات المختلفة بهدف «إقامة هذه الدولة الوهمية، عبر التاريخ». وخلاصة حجته هنا هي أن هذا النموذج لا يستقيم عقلاً. ولا يصح دينياً. بحكم الخلل في جوهر الفكرة، وليس فقط في عيوب الممارسة.

العلمانية:

لكن، يواجه النعيم مشكلة في الربط بين هذه النظرية وبين العلمانية (الأكاديمية منها أو الإعلامية) التي تعكس أسس الفكر الغربي. واعترف بأن هناك «مسالة اصطلاحية يجب أن أوضحها، وهي العلاقة بين أطروحتي الأساسية، وبين مصطلح ومفهوم «العلمانية».

وقال إن النصف الأول من أطروحته بفصل الإسلام عن الدولة «يتشابه مع العلمانية، كما يفهمها ويرفضها غالب المسلمين باعتبارها استبعاد كامل للإسلام عن الحياة العامة.» لكن النصف الثاني من الأطروحة يؤكد «الصلة بين الإسلام والسياسة، ويراعي تلك المخاوف من العلمانية».

وقال إن الإدراك السلبي الشائع للعلمانية وسط المسلمين، لا يفرق بين فصل الإسلام عن الدولة، من ناحية، وصلة الإسلام بالسياسة، من ناحية أخرى. وان غياب هذا التمييز يؤدي إلى فهم لفصل الإسلام عن الدولة باعتباره عزلاً للإسلام عن المجال العام، وحصره في المجال الخاص.

وأضاف: «بما أن هذا ليس ما أدعو إليه، فقد يكون من الحكمة استعمالُ مصطلح الدولة المدنية، بدلاً من العلمانية، لكيلا أضعف موقفي بالرؤية السلبية الشائعة عن العلمانية بين المسلمين. وبدلاً من تبديد الجهد في تصحيح الفهم الشائع للعلمانية، سوف استخدم مصطلح الدولة المدنية، على أن يفهم بأنه فصل الإسلام عن الدولة مع ضبط وتنظيم علاقة الإسلام بالسياسة».

محاضرات وندوات:

بالإضافة إلي كتبه ودراساته، يلقي النعيم محاضرات، ويتحدث في ندوات في الولايات المتحدة وغيرها. تحدث عن «حقوق الإنسان والمواطنة العالمية: وجهة نظر إسلامية» في جامعة رتجرز (ولاية نيوجيرسي). وتحدث في جامعة كليتون (ولاية جورجيا) عن:«كل مجتمع له شروره، ونحن، المجتمع الإسلامي، يجب أن نواجه شرورنا.» ودعا غير المسلمين إلى معرفة الإسلام، إن لم تكن دراسته، وقال: «الخلاف أبدي، والناس لا يمكن أن يكونوا متشابهين. حتى داخل العائلة الواحدة هناك اختلافات وخلافات.»

وانتقد النعيم تفسير كثير من الغربيين بأن الشريعة هي «القوانين الإسلامية». وقال: «إنها أكثر من قانون، إنها الالتزامات الإنسانية الكاملة.» وأضاف: «تشمل الشريعة كل جوانب الحياة، وهي جزء أساسي في الإسلام، ولهذا، فإن فصل الإنسان عن الشريعة يفصله عن الإسلام».

وأضاف، لكن، في نفس الوقت «لا بد للحكومات الإسلامية الظالمة أن تفرق بين الشريعة والدولة، حتى لا تلتصق الشريعة بنظام استبدادي».

«بولتمور صن»:

وبفضل نشاطه الأكاديمي وكتبه ومحاضراته، صار النعيم من كبار الأكاديميين الإسلاميين في الولايات المتحدة. وكتب د. مقتدر خان، أستاذ مساعد في جامعة ديلاوير (ولاية ديلاوير) في جريدة «بولتمور صن» (ولاية ماريلاند)، بأن كثيرا من أساتذة الجامعات الأمريكية المسلمين استفادوا من الحرية الأمريكية، وبدؤوا ينشرون كتبا وبحوثا أكاديمية فيها آراءهم الحقيقية. وما كانوا يقدرون على ذلك في بلادهم الإسلامية والعربية. وأشار إلى النعيم مع آخرين، مثل: سليمان نيانغ، وسيد حسين نصر، والراحل إسماعيل الفاروقي، وخالد أبو الفضل، وعزيزة الدبري، وطه العلواني، وأكبر أحمد، وماهر حتحوت، وأمينه ودود.

وأشار إلى أنغريد ماترسون، الأستاذة الجامعية والكندية التي كانت أسلمت، وصارت أول امرأة ترأس منظمة «أسنا» (الدائرة الإسلامية في أمريكا الشمالية).

تحديث:

في سنة ٢٠١١، قدم النعيم سلسلة محاضرات عن «ربيع العرب»، انطلاقا من ما أسمته جامعته، جامعة أموري، «أساسي نشاطاته الأكاديمية. وهما:

(١) **الديمقراطية** لا يمكن أن توجد داخل دولة إسلامية.

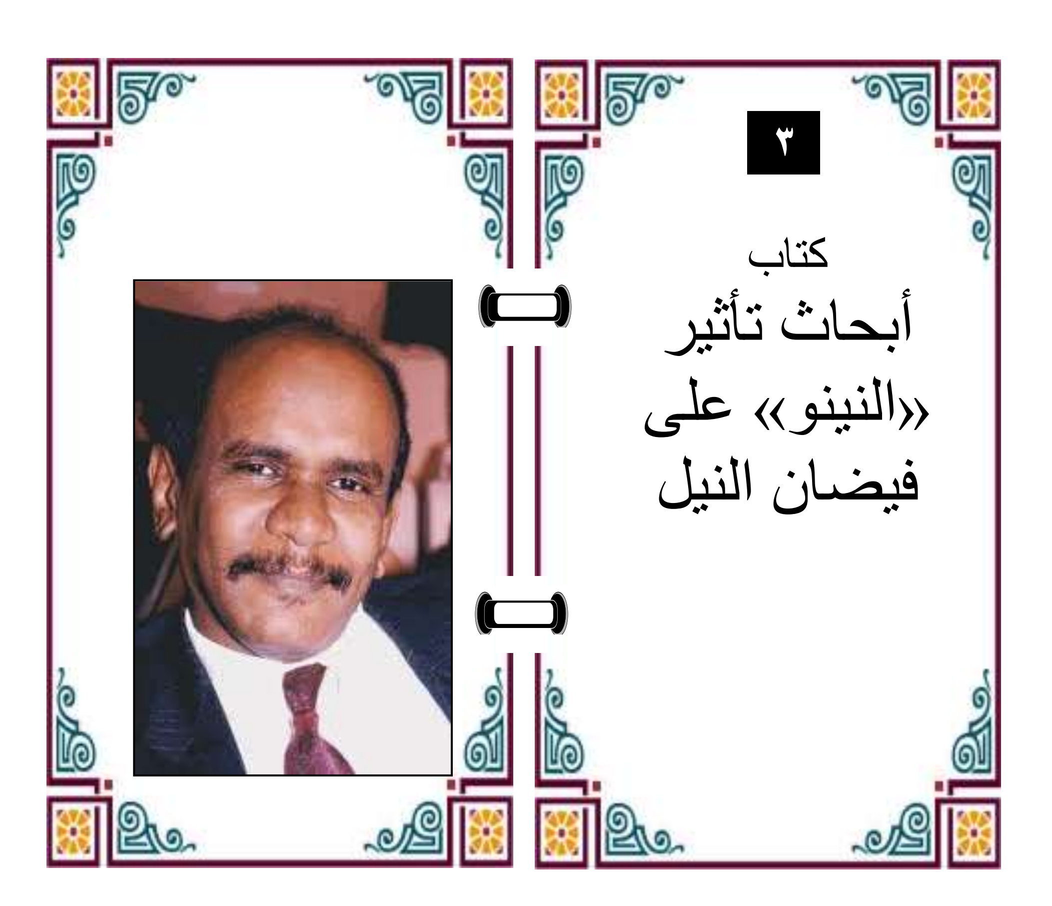
(٢) **الدولة العلمانية** ليست معادية للحرية الدينية.» وأضاف تقرير الجامعة: «هذه هي الإجابات التي يسعى إليها الإصلاحيون في أفريقيا والشرق الأوسط، بينما تجتاح الروح الثورية العالم العربي.»

وقال التقرير إن النعيم يراقب عن كثب الثورات في تونس، ومصر، واليمن، وليبيا، وساحل العاج، جداً. ومن بين هذه الدول الخمس، يعتقد أن تونس لديها فرصة أفضل «للسير على الطريق الصحيح». وإن سبب ذلك هو التأثير الغنى الفرنسي والإيطالية. وإن مصر لها «فرصة طيبة» بسبب وجود طبقة وسطى قوية. لكن مصر «متخلفة في الحرية السياسية».

وأضاف: «كان في مصر نظام الحزب الواحد لفترة طويلة. ولهذا، يجب أن تعود بمسافة جيلين إلى الوراء لاستعادة نظامها السياسي».

وفيما يتعلق باليمن وليبيا، قال «إنهما ليستا مستعدين تماما»، لأنهما تفتقران إلى الخطاب الضروري، وإلى المؤسسات الدينية والتعليمية، وإلى الأحزاب السياسية، وهي الأسس الثقافية للديمقراطية.

سودانيون في أمريكا وكتبهم



قال د. الفاتح علي بابكر الطاهر: «أنا أم درماني». جدوده من أكد (قرب آثار كرمة) في شمال السودان. لكن والده أم درماني، وهو أم درماني.

ولد، سنة ١٩٦١، في أبو روف، ودرس في ابتدائية أبو روف، وثانوية بيت المال العامة، وثانوية المؤتمر العليا، وجامعة الخرطوم.

في سنة ١٩٨٥، نال بكالوريوس هندسة شرف مرتبة أولى في الهندسة من جامعة الخرطوم. ثم ماجستير في «هيدرولوجي» (هندسة وجغرافية الماء) من جامعة ايرلندا. ثم ماجستير في «ميتريولوجي» (المناخ) من معهد ماساجوستس للتكنولوجيا (ام أى تي). ثم دكتوراه في «هايدروكلايموتولوجي» (المناخ المائي الهندسي الجغرافي البيئي) سنة ١٩٩٣ من نفس المعهد.

ولم يترك المعهد حتى اليوم: قضي فيه سنة ما بعد الدكتوراه، ثم أستاذا مساعدا لأربع سنوات، ثم أستاذا مشاركا لسنتين، ثم أستاذا مشاركا دائما لسنتين، ثم أستاذا دائما.

فيضان النيل:

مع زيادة كوارث فيضان نهر النيل في السودان ومصر ودول مجاورة، اهتم الطاهر بإمكانية التنبؤ بالفيضان قبل ستة شهور، اعتمادا على درجة حرارة سطح ماء جنوب المحيط الهادئ، في الجانب الآخر من الكرة الأرضية.

ورغم بعد المسافة بين النيل والمحيط الهادي، ربطت أبحاث الطاهر بين حجم ماء النيل وظاهرة «النينو» التي ثبت أنها لها صلات، أيضا، بفيضانات في أميركا الجنوبية، وجفاف يساعد على حرائق مدمرة في ولاية كاليفورنيا.

تعني كلمة «النينو» الإسبانية «الطفل»، إشارة إلى عيسى المسيح، وذلك لأن عواصف «النينو» تهب على أمريكا الجنوبية خلال أيام الكرسماس. وحتى سنة ١٩٢٣، لم يكن علماء المناخ والطقس يعرفون كثيرا عن هذه الظاهرة. وذلك عندما كتب عنها الجغرافي البريطاني جلبرت ووكر.

ومن هنا جاء اسم«ووكر سيركيوليشن» (هبوب الرياح في شكل دائرة من ساحل أميركا الجنوبية إلى ساحل استراليا، وتأثير ذلك على سطح ماء المحيط).

وقال الطاهر: «منذ بداية التاريخ، ظل مستوى ماء نهر النيل يشغل بال الحضارات المتعاقبة. ويؤثر على مواسم الفيضان، والجفاف، والمجاعة، والرخاء. وحوى كل من القرآن والتوراه قصصا عن المجاعة في مصر، وعن دور النبي يوسف في التخطيط الاقتصادي الفرعوني».

وأضاف: «في العصر الحديث، صار السد العالي في مصر رمزا لجهود الإنسان للسيطرة على هذا النهر العملاق. ولتوفير الماء عند الحاجة إليها. ولو وقاية الناس منها عندما تشكل خطرا عليهم. وفي كل العصور، يظل الإنسان النيلي يتمنى أن يقدر على أن يتنبأ بمستوى الفيضان القادم».

أرقام من أسوان:

عندما بدا علماء المناخ يهتمون بظاهرة «النينو»، ربطوا، في سنة ١٩٢٥، بينها وبين عشر ظواهر جغرافية أخرى في مختلف دول العالم، منها فيضان النيل. وأجرى الطاهر دراسات مقارنة بين درجات حرارة الماء في جنوب المحيط الهادي ومستوى فيضان النيل في أسوان، كما سجلته وزارة الري المصري.

وركز على مائة سنة، من سنة ١٨٧٢ إلى سنة ١٩٧٢.

في أسوان، وجد أن فيضان كل سنة يحمل ماء يتراوح حجمه ما بين ثمانين ومائة كيلومتر مكعب. وقسم حجم الماء إلى مرتفع، ومتوسط، ومنخفض. وفي منطقة «النينو»، قسم درجة الحرارة إلى باردة، ومتوسطة، ودافئة.

ووجد أن هناك صلة ايجابية بين الاثنين.

ثم انتقل الطاهر إلى المرحلة التالية، وهي إمكانية التنبؤ بحجم الفيضان. واعتمد على دراسات جديدة أوضحت إمكانية التنبؤ بدرجات الحرارة في منطقة «النينو». وخاصة، اعتمد على دراسة كتبها د. ستيفن زيبياك، أستاذ جغرافيا في جامعة كولومبيا (في نيويورك) عن درجات الحرارة هناك خلال السنوات من ١٩٧٣ إلى ١٩٨٩. وعن إمكانية التنبؤ بها منذ قبل ستة شهور.

وطبق هذه النظرية على فيضان النيل. ووجد إمكانية التنبؤ بمستواه كل سنة في شهر فبراير، أي قبل ستة شهور من قمة الفيضان الذي يأتي عادة في شهر سبتمبر.

التنبؤ بمستوى النيل:

لكن، قال الطاهر انه لم يحسم الموضوع بعد، لأن هناك حاجة إلى مزيد من الدراسات. ولأن هناك عوامل أخرى، بالإضافة إلى «النينو»، تؤثر على حجم ماء الفيضان. مثل: أمطار الهضبة الإثيوبية، وسرعة انسياب النيل، والخزانات والسدود.

وقال إن التنبؤ بمستوى الفيضان «ظل حلم الأجيال السابقة التي سكنت وتسكن على ضفتي النيل. وذلك لأن النيل، عبر تاريخه المسجل، ظل يتذبذب في مستواه».

في سنة ١٨٧٠ ارتفع إلى ١١٠ كليومتر مكعب. وفي سنة ١٨٨٠ ارتفع إلى ١٣٨ كيلومتر مكعب، وكان ذلك رقما قياسيا. وفي سنة ١٩١٠ انخفض المستوى إلى ٤٠ كيلومتر مكعب، وكان ذلك أقل رقم، ولم يتكرر حتى اليوم. وخلال المائة سنة الماضية، كان المتوسط ما بين ٨٠ و٩٠ كيلومتر مكعب. وفي سنة ١٩٧٠ كان الحجم ٨٥ كيلومتر مكعب، والذي يعتبر في نطاق الحجم المتوسط.

وحسب أرقام سنة ١٩٩٩، ربط الطاهر بين أرقام التنبؤ في منطقة «النينو» ومستوى النيل. وفي مارس في تلك السنة، تنبأ العلماء بأن سطح ماء المحيط سكيون باردا. وبالتالي، لن يكن فيضان النيل منخفضا.

وهكذا، أثبت الطاهر، إمكانية التنبؤ قبل ستة شهور من وصول مستوى النيل إلى قمته في سبتمبر.

الأمطار والملاريا:

وفي سلسلة أبحاث أخرى أجراها الطاهر، قاس العلاقة بين حجم الأمطار وانتشار مرض الملاريا، والذي يقتل الملايين كل سنة. خاصة في إفريقيا جنوب الصحراء مباشرة (وليس إفريقيا الغابات).

في سنة ٢٠٠٥، أعلنت هيئة الصحة العالمية أن ٦٠ في المائة من مرض الملاريا ينحصر في هذه المناطق. وأيضا ٨٠ في المائة من الوفيات بسبب الملاريا. ليست جديدة الصلة بين الأمطار والملاريا. وليست جديدة الصلة بين الأمطار في غرب أفريقيا وحرارة سطح المحيط الهادي.

لكن، بحث الطاهر إمكانية التنبؤ بالأمطار لمعرفة، مسبقا، أماكن تولد الملاريا. وركز على دول غرب أفريقيا (دول الساحل)، وهي أكثر مناطق انتشار الملاريا في العالم. وقسمها إلى ثلاث مناطق ملاريا : دائمة، معدومة، ومتوسطة.

وأجرى بحوثه في قريتين في النيجر: بانيزومبو، وزينداور.

ووصل إلى خلاصة أن إمكانية التنبؤ بحرارة سطح المحيط الأطلسي تساعد على التنبؤ بأماكن انتشار الملاريا. غير انه قال إن هناك عوامل أخرى، مثل أنواع الملاريا (أسوأ نوع: «بلاسموديوم»)، وأنواع الناموس (أسوأ نوع: «انوفولين»).

التصحر:

وأجرى الطاهر أبحاثا أخرى عن التصحر واختفاء الغابات في افريقيا. وقال إن هذه الظاهرة بدأت قبل عشرات السنين. وأن أرقام هبوط الأمطار المتوفرة أوضحت أن الأمطار انخفضت إلى أقل من المتوسط خلال هذه الفترة.

لم تكن جديدة الصلة بين التصحر ورياح «منسون». أي صلة المطر بالتكثف المائي وحرارة المحيط. (قال الطاهر أن أصل كلمة «منسون» هو «موسم» العربية).

وبحث الطاهر الصلة بين التصحر في الدول الأفريقية جنوب الصحراء مباشرة (مثل: تشاد، النيجر، مالي، موريتانيا)، وبين اختفاء الغابات في الدول إلى الجنوب منها (مثل: نيجريا، غانا، ساحل العاج).

لم يكن جديدا أن رياح «المنسون» دائرية، تنتقل من البحر إلى البر، ومن البر إلى البحر. لكن، وجد الطاهر أن «الدورة المنسونية» لا تتأثر بالتصحر في الدول إلى الشمال. لكن، يؤثر عليها اختفاء الغابات في الدول إلى الجنوب. ويقلل من التبخر والتكثف، وبالتالي، من دورة الأمطار الجديدة.

وهكذا، أثبت الطاهر أن اختفاء الغابات دائرة مغلقة، أي أنه يزيد من اختفاء الغابات.

خزان مروي:

وأجرى الطاهر، ومساعدون له، أبحاثا عن خزان مروي في شمال السودان. وخاصة عن مستقبله لمائة سنة:

أولا: تأثير التغييرات المناخية على الأمطار، وتأثير الأمطار على مستوى الماء، وتأثير ذلك على إنتاج الكهرباء.

ثانيا: تأثير زيادة الطمي في المستقبل (حوالي ١٤٠ مليون طن كل سنة).

ثالثا: التأثير على الصحة العامة بسبب الماء الراكد، وصلة ذلك بأمراض مثل الملاريا والبلهارسيا، وعمى النهر، وحمى «ريفت فالي».

ومثلما أجرى الطاهر أبحاثا في دول افريقية، أجرى أبحاثا في دول عربية.

أجرى، ومساعدون له، دراسات عن التصحر واختفاء الغابات في عمان (أوصوا بتخفيض الحركة، وزراعة الأشجار). وعن عدم دفع فواتير الماء في الكويت (أوصوا بحد أعلى مجانا، ثم دفع ما فوق ذلك).

بين السودان وأميركا:

عن السنوات التي قضاها في الولايات المتحدة، قال إن الولايات المتحدة دولة مؤثرة في العالم. «لكن، يوجد سوء فهم بين العالم وأمريكا». وأضاف: «أتمنى أن يفهم الأمريكيون بصورة أحسن ثقافات العالم الأخرى، وأتمنى أن تطور الدول الأخرى فهما لأمريكا».

وعن عائلته، قال إن زوجته هي شاهناز أحمد بدري، وهي، أيضا، أم درمانية، من حي العرضة. وتعمل طبيبة في أمريكا. وعندهما بنت وولد: «سميت نفيسة على اسم أمي»، ومحمد.

وقال إنه يزور السودان من وقت لآخر مع عائلته. وأيضا، لإجراء أبحاث علمية. وعن استفادة السودان من مؤهلاته، قال إنه، في الماضي، عمل ممتحنا خارجيا في جامعة الخرطوم. وأنه «مستعد لتقديم مزيد من الإسهامات.»

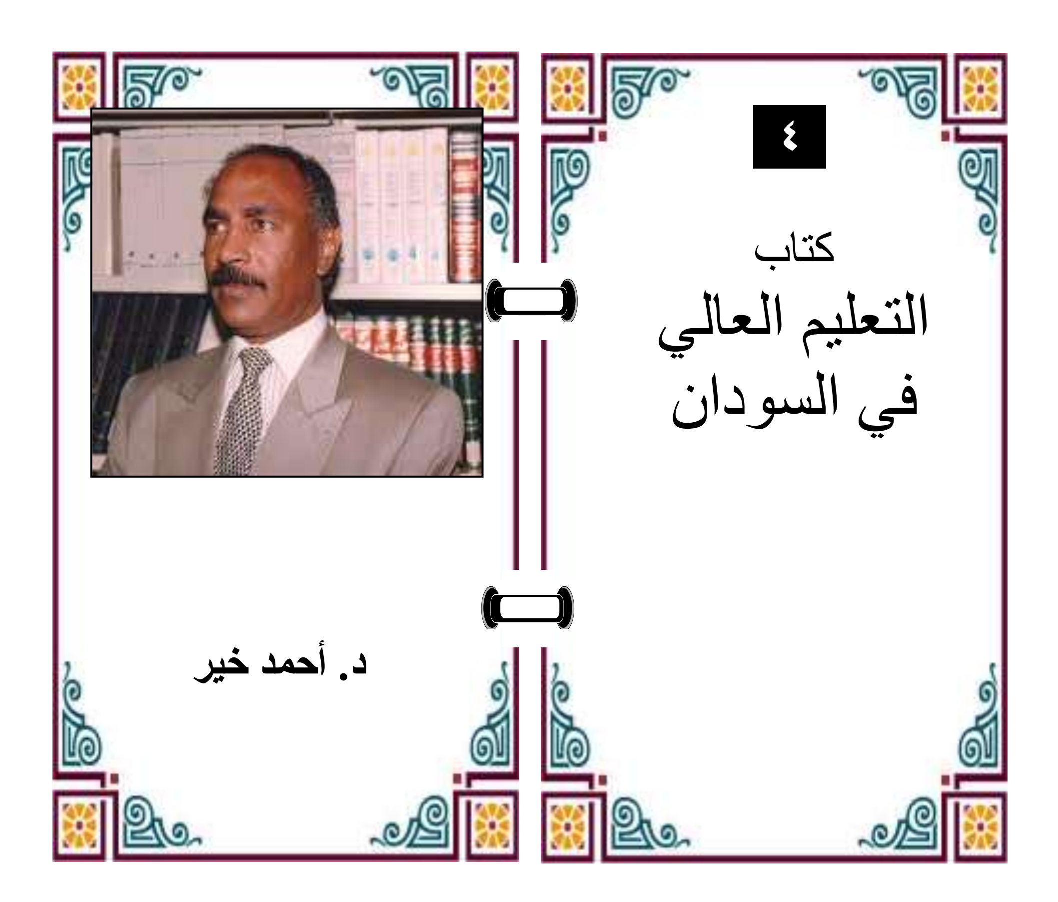
وقال إن السودان «بلد فيه إمكانيات كثيرة»، وأنه يتمنى له «الاستقرار ووحدة كلمة أبنائه».

تحديث:

خلال سنتي ٢٠١١ و ٢٠١٢، نشر الطاهر مزيدا من الأبحاث، وألقى مزيدا من المحاضرات، واشترك في مزيد من الندوات. واشترك في كتابة تقرير عن «هايدروكلايماتولوجي» (المناخ المائي الهندسي الجغرافي البيئي) في الولايات الأمريكية الوسطى. جاء التقرير بعد سلسلة أبحاث عن تأثير التغييرات في المناخ على كمية الماء في تربة تحت الأرض، وذلك بهدف معرفة الاحتمالات المستقبلية للتقلبات المناخية.

وفي سنة ٢٠١١، نشرت «مجموعة الطاهر» للأبحاث الجغرافية نتائج بحث عن التغييرات المناخية في عدة أجزاء في أفريقيا. وقارن البحث بين مناخ منبع النيل الأزرق في الهضبة الأثيوبية، وحوض نهر الكونغو.

سودانيون في أمريكا وكتبهم



ولد د. أحمد إبراهيم محمد خير في سنة ١٩٤٦ في القولد (ولاية النيل). وتعلم في مدارسها. ثم في مدرسة النجاح الإعدادية في الإسماعيلية (عندما انتقل والده إلى مصر، وعمل في خفر السواحل). ثم الثانوية في الأبيض (عندما انتقل والده إلى أبو جبيهة في ولاية كردفان). ثم نال بكالوريوس في الجغرافيا من جامعة القاهرة فرع الخرطوم. ثم ماجستير في الخدمة الاجتماعية من جامعة هيوستن في ولاية تكساس (الأطروحة :العلاقة بين رضا المريض ومستوى الخدمات التي تقدم له). ثم الدكتوراه في إدارة التعليم العالي من نفس الجامعة (الأطروحة: العلاقة بين مؤسسات التعليم العالي وسياسة الحكومة في السودان.»

عمل أستاذا مساعدا للخدمة الاجتماعية في جامعة تكساس الجنوبية (ولاية تكساس). ثم مستشارا أكاديميا في السفارة السعودية، ثم في سفارة الإمارات.

ثم تفرغ لترجمة رواياته وإخراجها في مسلسلات. وعمل سيناريو لمسلسل من ثلاثين حلقة تلفزيونية، بالتعاون مع صلاح عيسى، كاتب سيناريو مصري، لروايته «بور سعيد، ليفر بول و بالعكس.» بالإضافة إلى هذه، كتب روايتي: «دوائر الخوف» و «طائر الشوق.» وفرغ مؤخرا من كتابة رواية « صرخة » عن علاقة الآباء والأبناء في المهجر .

نوبي وكردفاني:

قال خير إن سنواته في مصر «جعلتني منفتحا على العالم منذ وقت مبكر في حياتي. وطبعا مصر هي أم الدنيا.» وقال إن العلاقات بين البلدين فيها سلبيات، لكن في الغالب ايجابيات . مصر تسمح للسودانيين بدخولها، والإقامة فيها ، وتملك عقاراتها، وتجنس أولادهم وبناتهم بجنسيتها إذا كانت الأم مصرية. وهي الدولة الوحيدة التي تعطي السودانيين هذه الميزة.

وعن قبيلته، قال : «أنا محسي دنقلاوي . جدى لوالدى من المحس، ثم انتقل إلى القولد، وتزوج دنقلاوية. لهذا، أبي محسى دنقلاوي. أما والدتي فهي أبا عن جد من المحس».

وعن هويته، قال: «أنا نوبي ، أتحدث المحسية والدنقلاوية. ثم كردفاني، على السكين. وعشت في وسط النوبا في جبال النوبا، فى أبوجبيهة. وتنقلت في دار فور، ثم في المديريات الجنوبية. وعشت في مصر وغانا وألمانيا والآن في الولايات المتحدة.» وأضاف: «أنا من نتاج كل ما سبق. يوصفون كل شمالي بأنه «عربي مسلم.» يكفيني أن أقول « أنا نوبي »، لأن الاسم أشمل، ويضم كل السودان بثقافاته المتعددة ومصر من أقصاها إلى أدناها».

ثقافات مختلفة:

وعن تأثير الثقافة المصرية عليه، قال خير: « يجعل الانغماس في الواقع المصري الفرد يتشرب من تيارات مختلفة. مصر منبع للثقافات، وأساس حضارتها هي الحضارة الفرعونية، وهناك عادات فرعونية لا تزال تمارس. كما أن التيارات القبطية، ثم التيارات والإسلامية من أمويين، وفاطميين، ومماليك، وأتراك ، ثم فرنسيين وإنجليز، كلها تركت آثارها واضحة في مصر».

وأضاف: «الشارع المصري بروح النكتة المنغرسة فيه يجعلك تتفهم عمق التربة المصرية. يصبح التفاعل جزءا من الحياة اليومية، مما يحفز ذهنك، ويجعلك في تفكير دائم لمواكبة ما يجرى».

وعن تأثير الثقافة الأمريكية عليه، قال : «أمريكا عالم آخر ، يجعلك تتعرف على إنسانيتك . فالناس سواسية أمام القانون في ظل دستور يحمي الصغير والكبير . أمريكا بتعدد ثقافاتها «مجتمع متعدد الثقافات »، يقرب لك العالم في حيزك المكاني، فأنت ل اترحل لتعلم من هو الأوروبي أو اللاتينى أو الإفريقي أو الآسيوي. هنا تأتيك الثقافات على طبق، ولك أن تلتهم جزء مما عليه، أو تلتهمه كله. هذا يتوقف على مقدرتك وإمكاناتك. بمعنى آخر، أمريكا تجبرك لتكون متحضرا بمعنى الكلمة . وهذا يكفى».

عائلته:

تزوج خير أمريكية، «جنيفا»، وأنجب منها بنتا، «قررت أمها أن تسميها خديجة، تيمنا بزوجة الرسول». وبعد أن انفصل من «جنيفا»، تزوج سودانية: إيمان محمد الهادي قريب الله. والتي لديها بنت وثلاثة أولاد: لمياء تدرس علم النفس في جامعة جورج ميسون في فرجينيا. وأحمد يدرس الطب في جامعة بوسطن، ومحمد الهادي وحسام في الثانوية.

قال خير إن أمريكا «متعددة الثقافات، وتحترم الإنسان كإنسان، وتفسح المجالات بلا حدود في التعليم والعمل والحياة.» لكن، «لا بد لها أن تقوم أمريكا بدراسات لإعادة النظر في علاقاتها بدول الشرق الأوسط والدول النامية».

وأن السودان «يتدهور، بالمقارنة مع الستينات والسبعينات من القرن الماضي، وذلك التدهور حل أيضا في القيم والعادات . والآن، صارت تحكمه القبلية وحاملو السلاح، مما ينذر بمستقبل مظلم».

لكنه بالرغم من ذلك، يرى «الضوء في آخر النفق المظلم».

التعليم العالي:

بالإضافة إلي ثلاثين سنة تقريبا كمستشار في التعليم الجامعي في الولايات المتحدة، أعد خير رسالة الدكتوراه عن نفس الموضوع: مؤسسات التعليم العالي وسياسة الحكومة في السودان.

ورغم الفارق الكبير بين الولايات المتحدة والسودان في مجالات التعليم، وحرية التعليم، والتطور التعليمي، أوضحت إجراءات الحكومة الأمريكية بعد هجوم ١١ سبتمبر أهمية العلاقة بين الحكومات ومؤسسات التعليم العالي، سواء في الدول الغربية (مثل الولايات المتحدة)، أو دول العالم الثالث (مثل السودان).

وكتب في رسالته: «تميل الحكومات، خاصة في الدول التي تتقدم ، نحو الإشراف علي التعليم العالي، وتنسيقه، والتخطيط له . في الجانب الآخر، تميل الجامعات نحو مقاومة ذلك، لأنها، بصورة عامة، تريد الالتزام بالحرية الأكاديمية، والاستقلال الذاتي. وهكذا، يظل الصراع قائما بين الطرفين ».

***

اقتراحات:

واقترح خير الآتي على الحكومة السودانية:

أولا: تلغي وزارة التعليم العالي. وقال: «يعني بقاء الوزارة اعترافا ضمنيا بتبعية مؤسسات التعليم العالي للحكومة... كلنا نعلم أن ما يمارس في دواوين الحكومة من روتين مقيد لا يمت بأية صلة للحرية الأكاديمية التي ننشدها، وتنشدها كل مؤسسات التعليم العالي».

ثانيا: تشجع التبرعات والهبات من القادرين في المجتمع. وعلي مؤسسات التعليم العالي الاعتراف بذلك بتسمية القاعات والكليات بأسماء المتبرعين.

ثالثا: لا تتدخل في الميدان الأكاديمي، وخاصة المناهج والتدريس والإدارة

رابعا: تعيد تقييم تعريب المناهج. وقال: «ليقوم بتلك الدراسة متخصصون في المناهج وطرق التدريس ... والاستعانة بالبيوتات الاستشارية الدولية».

تحديث:

في سنة ٢٠١٢، انتقل د. خير إلي مصر ليكون قريبا من دور النشر التي ينشر فيها كتبه، ومن الإذاعات والتلفزيونات التي تقدم مسلسلات لكتبه.

سودانيون في أمريكا وكتبهم



رغم أن د. عبد الرحيم محمد صالح تخصص في قبيلة المناصير، في شمال السودان، ليس منهم. ولد، سنة ١٩٦٢ في الدوم، عمودية إيماني، محلية دنقلا، الولاية الشمالية. ودرس في حامدنارتي الابتدائية، والسير المتوسطة، ودنقلا الثانوية. وفي سنة ١٩٨٥، نال بكالوريوس شرف من جامعة الخرطوم. وفي سنة ١٩٩٠، نال ماجستيرًا من نفس الجامعة (عنوان الأطروحة: الأمن الغذائي في السودان). وفي سنة ١٩٩٩، نال دكتوراه من جامعة بيرويث، في ألمانيا (عنوان الأطروحة: المناصير).

وفي نهاية سنة ١٩٩٩ جاء إلى الولايات المتحدة، وعمل في مؤسسات تعليمية ألمانية، ثم أمريكية. والآن، يعمل أستاذا في الجامعة الأمريكية (في واشنطن) وأستاذا مساعداً في كلية هوارد (في ولاية ماريلاند).

زوجته هي أماني موسى محمد أحمد (من الأبيض). وعندهما: هالة، و محمد صالح، وعبد الكريم.

عن نفسه، قال: «لست من المناصير، ولكني أحببتهم، وأعتبر نفسي واحداً منهم. ».

وعن سنواته في ألمانيا، قال: «تعلمت من الألمان الكثير المفيد. تعلمت اللغة الألمانية. وتتلمذت على أيدي أساتذة أجلاء أكن لهم كل احترام وتقدير. وتعلمت منهم الدقة، وإتقان العمل، والمسؤولية، والانضباط، والنظام .»

عن الشبه والاختلاف بين الألمان والأمريكيين، قال: «تجمعهم الحرية، وسيادة حكم القانون، واحترام الإنسان لأخيه الإنسان. لكن، الأمريكيين شعب من المهاجرين، بينما لا يرتاح الألمان للمهاجرين.» وأضاف: «يأتي الإنسان إلى أمريكا، ويدخل أولاده وبناته في المدارس، ويشتري بيتا، بدون وجود فرق بينه وبين الأمريكيين. لكن، ليس ذلك سهلا في ألمانيا».

عن حياته في أمريكا، قال: «أمريكا هي وطني الثاني، ووطن أبنائي الأول. أنعم فيها وزوجتي وأبنائي بالعيش الكريم.» وأضاف: «السودان في وجداني. ولازلت أكل القراصة. وأردد أغنية النعام آدم: «لا شوفة تبل الشوق، ولا ردا يطمئن». وأحيانا، تنتابني نوبات النوستالجيا، وأشتاق إلى الأهل و الأحباب».

عن نظرته إلى السودان من أمريكا، قال: «رغم المشاكل الكثيرة والحروب، لا يزال بخير.»

عرب المناصير:

انتقد صالح سياسة حكومة السودان نحو الذين تأثروا ببناء خزان مروي على نهر النيل في شمال السودان، وخاصة عرب المناصير. وقال: « لتنصف الحكومة المناصير، ولترفع ظلم الأجيال عليهم.» واقترح أن تصدر الحكومة مرسوما رئاسيا تتعهد فيه برفع الظلم عن المناصير.

عن خزان مروي، قال: «أنا شخصيا لست مقتنعا به، وكنت ضده منذ البداية، رغم أني اشتركت في أبحاث تمهيدية عنه، وجمعت معلومات عن المناصير. بينما كان المناصير يعتقدون أنهم باقون في مناطقهم إلى الأبد، اقتنعت أنا بأن المنطقة ستغرق. ولهذا، جمعت كل ما أقدر عليه من وثائق وصور.»

والمناصير ليسوا غرباء على صالح، فقد كتب رسالة الدكتوراه عنهم. وأصدر كتابا عنهم.

ورغم أن بحثه ليس عن خزان مروي، انتقد فكرة الخزان. وقال: كانت هناك بدائل مثل الطاقة الشمسية والرياح. ولا تعيش الخزانات طويلا، لأن الطمي يتراكم أمامها مع مرور السنين.

وانتقد نقل المناصير الذين تأثروا ببحيرة الخزان إلى أماكن بعيدة: الفداء (قرب ابو حمد) والمكابرات (قرب الدامر).

وانتقد عدم إعطاء المناصير خيار بناء منازلهم علي أطراف البحيرة، حتى يعيشوا بالقرب من أرضهم القديمة. وأشار إلى المثل المناصيري: «المربة تربة» (تربة الإنسان حيث يتربى).

بالإضافة إلى ذلك، قال إن معاملة الحكومة للمناصير لم تكن طيبة. ولم تكن تعويضاتها كبيرة. ولم تهتم اهتماما كافيا بالجانب النفسي والتاريخي للذين ستغمر الماء مناطقهم. وسيعيشون في مناطق غريبة عنهم. وتحولت المشكلة إلى سياسية، إلى منافسة بين المؤتمر الوطني الحاكم، والمؤتمر الشعبي المعارض.

وقال **صالح** أن أغلبية المناصير تؤيد بناء الخزان، كوسيلة لرفع مستواهم. لكنهم كانوا يتوقعون تعويضات كبيرة تجعلهم يهاجرون من المنطقة. وأشار إلى أغنية يغنونها تقول: «يا الله تجيب لنا الخزان، نهاجر نسكن أم درمان، نأكل الكبدة ولحم الضان».

لعنة الخزان؟

ومن المفارقات أن صالح خلص إلي أن «الدولة الحديثة»، ربما متمثلة في هذا الخزان، ستكون من عوامل تشتيت المناصير، رغم أنه كتب كثيرا عن تراثهم، وهويتهم، وفخرهم بعروبتهم.

قال إنهم أسسوا أول دولة عربية إسلامية في شمال السودان. وينسبون أنفسهم إلى الزبير بن العوام.

ويقولون إن جدهم، منصور الخالي، جاء من الجزيرة العربية عبر صحراء النوبة. جاء على صهوة جواد عربي، واستقر في كجبي. وأعجب الملك بشجاعته، وأعطاه جارية من جواريه بعد أن عتقها. ومنها جاء فرع الكجوباب، ويسمونه «أولاد أم ربع» (ربع الجارية). ثم تزوج جعليه، ومنها جاء فرع الوهاباب. ثم تزوج رباطابية، ومنها جاء فرع السليمانية. وتزوج أخريات جاءت منهن فروع أخرى.

وتؤثر نسبة الدم العربي على هذه الفروع. ولهذا يوجد «مناصير المناصير» و«يتسموا مناصير» (أي سموا يسمون أنفسهم مناصير) و «أهل البلد».

مدرستان:

اعتمادا على شجرة انساب المناصير، رسم المؤرخ البريطاني ماكمايكل جدولا بدا بمنصور (جد المناصير)، وعاد إلى العباس بن عبد المطلب، وهاشم جد النبي، ثم إلى إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، كبير العرب. وأكد المؤرخ بيركهارت انهم عرب، رغم انه لم يثبت ذلك.

وربطهم المؤرخون العرب بقبيلة قيس العربية، وبقبيلة اسمها مناصير في الربع الخالي.

لكن، ظهرت نظريات علماء أجناس أمريكيين تعتبر المناصير «نوبة استعربوا واسلموا، وفقدوا لغتهم الأصلية».

قال **صالح** إنه بين المدرستين. لكنه رجح الجذور النوبية أكثر من الجذور العربية. يوجد داخل المناصير فرع نوبي، لكنهم أقلية ومهمشون. ثم إنهم هم، أنفسهم، ينفون وجود صلة تربطهم بالنوبة الأصليين.

لكن، هناك كلمة نوبية كثيرة في منطقة المناصير (مثل: برتي، ودري، واشش، واورس، وشيري، وشرري). حتى وسط الشايقية، المجاورين لهم، توجد كلمات نوبية (مثل: مريق، وسديق، وكاويق، وبشنتيق).

عرب أو نوبة؟:

وقال صالح أن الإصرار، ربما غير العلمي، على الانتماء إلى الجزيرة العربية لا يقتصر على المناصير فقط. ولكن يشمل قبائل شمالية أخرى.

وأضاف: «في كل حالة، جاء نبيل عربي من الجزيرة العربية، مباشرة أو غير مباشرة.»

ورغم أنه قال أن هذه «خرافة»، قال: «لأن كل قبيلة تتمسك بها، صارت عاملا رئيسيا لوحدة القبيلة، وللتعبير عن كيانها وهويتها».

ورغم إنه قال إن انتساب المناصير إلى عرب الجزيرة العربية فيه «مبالغات»، أضاف أن المناصير لا يهتمون بأي نظرية تشكك في عروبتهم، وفي انتمائهم إلى الزبير بن العوام.

وقال: «حتى إذا تأكد لهم أن هويتهم الحالية ليست صحيحة، لن يغيروها.»

تحديات الدولة الحديثة:

عربا أو نوبة، قال صالح إن هناك تحديات تواجه هوية المناصير (وهويات قبائل غيرها):

أولا: اختلافات بين الفروع.

ثانيا: اختلافات بين طبقات اقتصادية.

ثالثا: الدولة الحديثة.

تؤثر الدولة الحديثة ثقافيا، وتعليميا، وسياسيا. وتدريجيا، يتفكك الانتماء القبلي، وتحل محله انتماءات حزبية ووطنية. وتدريجيا، تحل محل هذه انتماءات عالمية، بعد أن بدأ العالم يصير مثل قرية.

ولهذا، قال: «صار تعريف الهوية وسط كل السودانيين صعبا». لأن هناك عوامل دينية، وعرقية، وثقافية، وقبلية معقدة. ولأن مفهوم الدولة كهوية في طريقه للانقراض. ولأن العولمة «سوف تقضي عليه.»

لكنه قال أن الهوية اعتقاد، وأضاف: «الهوية أنت صاحبها، وتؤمن بها».

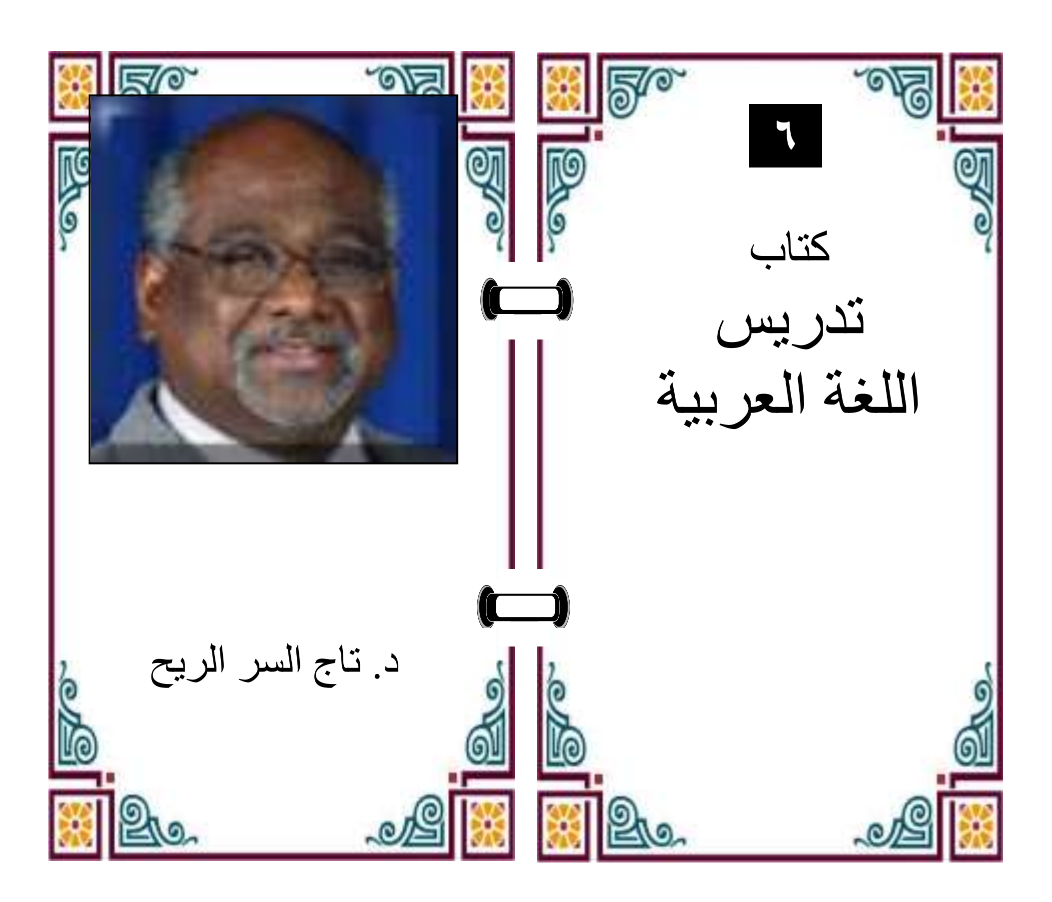
ما هو دور اللون؟

قال صالح انه ليس مقياسا، لا وسط المناصير، ولا وسط قبائل كثيرة غيرهم. وقال: «علاقة اللون بالعروبة مفهوم حديث، بعد أن تأكد لنا أن لون العرب أكثر بياضا من ألواننا، لكن في الحقيقة ليس اللون مقياسا للعروبة.»

تحديث:

يواصل د. عبد الرحيم محمد صالح أبحاثه ودراساته واهتمامه بمنطقة المناصير. وبحث في قبائل سودانية أخرى، مثل قبيلة الرشايدة. ومؤخرا، بدا يكتب عن المنطقة التي ولد وتربى فيها، الدوم، عمودية إيماني، محلية دنقلا. وكتب «جرائد نخل رطبة خضراء على قبر المرحوم الأستاذ إدريس عبد الحميد»، وكان من قادة القراريش في المنطقة. وقال إنه يريد أن يكتب عن المرحوم محمد صالح تلودي (بركية)، وكان من قادة الكبابيش في المنطقة.

سودانيون في أمريكا وكتبهم



د. تاج السر حمزة الريح نزح أسلافه الشايقية العدلاناب من مملكة كجبي في منطقة مروي (في شمال السودان) في صدر التركية، واستقروا في ضواحي الخرطوم بحري، في أبو حليمة، والكدرو حيث ولد في عام ١٩٥٠. تلقى تعليمه الابتدائي، والثانوي في وادي سيدنا، والمتوسط في لخرطوم الأهلية. ثم درس في معهد المعلمين العالي.

وحصل على بكالوريوس تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها من معهد الخرطوم الدولي. وماجستير المناهج من جامعة الخرطوم. ثم ماجستير العلوم في تقنية النظم التعليمية من جامعة إنديانا الأمريكية. ثم دكتوراه الفلسفة في تقنية النظم التعليمية من جامعة إنديانا، أيضا. (موضوع الرسالة: تحليل نُظمي لبرنامج التربية العملية في معهد الخرطوم الدولي للغة العربية).

وعمل في حقل تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في السعودية، وإندونيسيا، وجامعة جورج واشنطن في واشنطن العاصمة، وفي كلية مجتمع شمال فرجينيا (نوفا). فبالوقت الحاضر، يدير التدريب على اللغة العربية في المعهد الدبلوماسي الأمريكي بالقرب من واشنطن العاصمة.

له وزوجته نادية طه حمزة كمبال ثلاثة من البنين: بنتان إحداهما ضابطة موارد بشرية بشركة لوكهيد. والثانية طالبة طب أسنان في جامعة فرجينيا كمونولث، والابن بجامعة أولد دمنيون بفرجينيا.

عن رأيه في الحياة في أميركا، قال:

«هذا سلاح ذو حدّين: فساكن العالم الأول ينعم بالحريات، وسهولة الحياة العصرية، وتوعيتها، والفرص المتعددة، والمتساوية في التعليم، والعمل، والرقي الاجتماعي، وما شابه ذلك. ومن الناحية الأخرى، تظل مسألة تباين بعض القيم والمفاهيم الثقافية ومردود ذلك على تربية الأولاد هاجسًا يؤرق الآباء ويقلق مضاجعهم.»

وعن ارتباط الجيل السوداني الجديد في أمريكا باللغة العربية، قال:

«لابد من ربط الأجيال الجديدة بالثقافة السودانية التي تشكل اللغة العربية فيها جزءًا هامًا لمن يتحدثون بها. ويسعدني أن أرى كثيرًا من الآباء والأمهات يولون ذلك الأمر الاهتمام الذي يستحقه، وذلك بحرصهم على إنشاء مدارس الجالية، وتسييرها. ونتمنى أن نرى كثيرًا من التسديد والمقاربة في البيوت. وذلك لأن ما يتعلمه أبناؤنا وبناتنا في مدارس عطلة نهاية الأسبوع لا يكفي لبلوغ المعرفة المطلوبة في اللغة، ولا للربط المأمول بالتراث».

مستوى اللغة العربية:

وعن تدريس اللغة العربية في السودان، قال الريح إن المستوى الحالي للغة العربية، وأيضا اللغة الإنجليزية، شهد «تدنيا مريعا» في السنوات الثلاثين الماضية. وذلك «كنتيجة متوقعة لضعف كفاءة المعلمين القائمين على أمر تدريسهما في المراحل التعليمية المختلفة.» وأضاف: «لم يتلق الكثير من هؤلاء المعلمين التدريب الكافي الذي يؤهلهم لنقل الخبرة اللغوية المطلوبة إلى طلابهم، وذلك يعود بنسبة كبيرة إلى هجرة المعلمين المتمرسين الذين استقطبتهم دول الخليج، ونفذت بهم خططها التعليمية» .

وقال الريح: «وزارة التربية السودانية - في غياب معلميها المدربين في السبعينات - لجأت إلى تعيين خريجي الكليات العلمية لتدريس اللغة الانجليزية في المدارس الثانوية فقط لأنهم تلقوا الدراسة باللغة الإنجليزية. ولك أن تتخيل كيف دارت هذه الدائرة المدمرة، فأوصلت المستوى اللغوي إلى ما هو عليه الآن. فقد تخرجت على أيدي هؤلاء المعلمين غير المتخصصين أجيال عديدة امتهنت مجموعات كبيرة منها مهنة التدريس فيما بعد. فانعكس ضعفها على من تعلموا على أيديها. وهكذا، نرى آثار ذلك واضحة في تدني مستوى الخدمة المدنية عمومًا في البلاد».

تاريخ اللغة العربية:

كتب الريح أن اللغة العربية في السودان ظهرت مع ظهور المهاجرين العرب الأوائل، قبل الإسلام. وانتشرت فيما بعد بزيادة الهجرات العربية في البلاد. وأضاف: « أنها كانت وما زالت الوعاء الذي حمل الثقافة الإسلامية التي جاؤوا بها.»

وقال أن السودان شهد المدارس النظامية بشكلها المعروف لأول مرة إبان العهد التركي المصري. وفي سنة ١٨٤٦، تأسست أول مدرسة كاثوليكية في الخرطوم، ولم يعترض عليها المسلمون ما دامت لا تنصّر أبناءهم. وفي سنة ١٨٧١ دعا غردون باشا الجمعية المسيحية التبشرية البريطانية للعمل في المديرية الاستوائية. ثم أسس دانيال كومبوني مدارسه في السودان (وهو إيطالي آمن بالتعليم وسيلة للتنصير. وله مدارس مسيحية في إيطاليا ومصر ودول أفريقية عديدة)، وصار خريجو مدارس كمبوني أساتذة في المدارس المسيحية في الشمال.

وأغلقت دولة المهدية (١٨٨٤-١٨٩٨) المدارس النظامية التي أسسها الأتراك في البلاد (ما عدا مدرستي سواكن وحلفا). كما أغلقت المدارس المسيحية في الشمال. وشُجّعت الخلاوي، والمدارس القرآنية، على تدريس القرآن، والعلوم الدينية.

وقال الريح: «فيما يتعلق باللغة العربية في الجنوب، كانت مجهولة في تلك المناطق قبل عام ١٨٤١. ولكن أنشطة التجار الشماليين ومستوطناتهم «زرائبهم» في الجنوب لعبت دورًا بارزًا في نشر الثقافة العربية والإسلامية في أواسط الجنوبيين.

وقلل انسحاب الحاميات العسكرية التركية المفاجئ من الجنوب عند نشوب الثورة المهدية من فرص انتشار اللغة العربية التي كانت لغة التواصل والتعامل اليومي بين الجنود والسكان المحليين.

وقال الريح إن حكومة الحكم الثنائي (١٨٩٨-١٩٥٥) أعادت النظام التعليمي الذي بدأه المصريون الأتراك قبل المهدية. ووضعت اللغة العربية في صدر قائمة مناهجها التعليمية. كما حملت المفتشين البريطانيين على تعلم اللغة العربية كأداة إدارية تساعدهم في مخاطبة عامة الناس. وفي الجانب الآخر، أجبرت طلاب كلية غردون التذكارية على تعلّم اللغة الإنجليزية حيث كانت من متطلبات العمل في الوظائف الحكومية.

وقال الريح: «في البدء سمح البريطانيون باستعمال اللغة العربية في الجنوب حتى سنة ١٩٣٠». وذلك حين أمر السكرتير الإداري بتشجيع اللهجات المحلية لتحل، مع الإنجليزية، محل اللغة العربية. وأمر باستعمال خريجي المدارس المسيحية التبشيرية بدلا عن الشماليين الذين يتكلمون اللغة العربية. وقيّد تحركات التجار الشماليين المسلمين. وشجع غيرهم من التجار اليونانيين والسوريين. جاءت هذه القرارات ضمن ما يسمّى ب «قانون المناطق المقفولة» الذي امتدّ حتى استقلال السودان تقريبًا.

وقال الريح إن كثيرا من الشماليين اعتقدوا حينذاك أن نشر اللغة العربية والإسلام في الجنوب «سيحل مشكلة الجنوب.» وأعلنت الحكومة برنامجًا لاستبدال المدارس الكنسية الخاصة بأخرى حكومية. بل وبدأت كتابة لهجات جنوبية باللغة العربية، مثل مشروع محمد خليل عساكر. كما أوصت لجنة عكراوي بأن تكون العربية هي لغة التخاطب في الجنوب.

وبنهاية الحرب في الجنوب بعد اتفاقية سنة ١٩٧٢، جُعلت الإنجليزية لغة الإدارة والتعليم في الجنوب.

وعن الوقت الحاضر، قال الريح: «ما زالت اللغتان الإنجليزية العربية تتعايشان في الجنوب مع تسارع انتشار ما يُعرف بعربية جوبا.» ولتدارك المشكلة يقترح الريح أن يعاد النظر في السياسات المتصلة بتعليم وتعلّم اللغة العربية واللغات الأجنبية في البلاد. وأيضا، يقترح تركيز مناهج كليات إعداد المعلمين في كل التخصصات للحصول على المعلم الكفء.

سودانيون في أمريكا وكتبهم



ولد د. عبد الرحمن إبراهيم محمد في الخرطوم بحري في سنة ١٩٤٥. ودرس في مدارس في الخرطوم بحري: روضة المدرسة الإنجيلية الأمريكية، وخلوة الشيخ خوجلي، ومدرسة القديس فرانسيس الكاثوليكية، ومدرسة العزبة الأولية رقم اثنين، والمدرسة الأميرية الوسطى رقم واحد. ثم مدرسة الخرطوم الثانوية الحكومية. ثم حصل على بكالوريوس كلية الآداب في جامعة الخرطوم. ثم ماجستير كلية الاتصالات والعلاقات العامة في جامعة بوسطن. ثم دكتوراه في الدراسات الإنمائية متعددة المسافات في جامعة بوسطن.

ومن الكتب والدراسات التي كتبها:« ثورة ١٩٢٤ أسبابها ونتائجها» و«الأيديولوجية والهوية والشرعية: قراءة إطارية للواقع الاجتماعي السياسي للعالم الثالث» و«الدور المحوري لإفريقيا والأفارقة في الإسلام منذ نزول الوحي» و «تقويم التركيبة الاجتماعية: إستراتيجية لسلاسل من الكتب لتوسيع القاعدة الثقافية في الدول النامية، السودان كنموذج» و «نقل التكنولوجيا بين الآمال والواقع وأزمة الأولويات»

وقد حضر كثيرا من المؤتمرات العالمية الأكاديمية والمهنية والتقنية والفكرية والثقافية وأهمها الدور المحوري في تشكيل الحركة العالمية للبيئة في أواخر الستينات.

ومن أوائل المؤتمرات العالمية التي حضرها عندما كان طالبا في جامعة الخرطوم مؤتمر إعادة الطلبة اللاجئين ومؤتمرات دعم حركات التحرر وتنمية الريف.

دار النشر:

لعدة سنوات، عمل عبد الرحمن في دار جامعة الخرطوم للنشر. وقال: «أسهمت في بناء صرح عظيم كان نموذجا للعالم الثالث في كفاءته وعطائه. لكنه مع الأسف خرب وتداعى.» وأضاف: «بفضل كل العاملين وإخلاصهم، أوصلنا الكتب إلى كل ركن من أركان السودان. ثم وزعنا كتبا سودانية على نطاق عالمي. والآن تصيبني النشوة ويتملكني الحنين كلما رأيت كتبنا من تلك الحقبة في مكتبة عامة أو جامعة في أمريكا».

وقال أن فترة دار جامعة الخرطوم للنشر كانت مرحلة ثراء ثقافي وعلمي، ونماء عقلي لا توصف. وقال: «كان علي أن أقرأ كل مخطوطة مقدمة من شعر ودين أو طب و زراعة، من أدب الأطفال إلى هموم واهتمامات الكبار. وأشرف على إنتاج وتوزيع مجلات الطب والزراعة والاقتصاد والتاريخ والسياسة والآداب والفلسفة والموسيقى والمسرح. واطلع على إنتاج الدور العربية والأفريقية والعالمية ... فتوسعت مداركي، وأثريت اهتماماتي، وتعلمت كثيرا مما هيأ لي لأنجز ما أنجزت، ويزداد رصيدي من المعرفة والعلم. فشكري لدار جامعة الخرطوم للنشر لا حدود له».

وبالإضافة إلى ذكرياته الأكاديمية والمهنية والسياسية من جامعة الخرطوم، يتذكر أنه كان رئيسا لفريق الجامعة في كرة السلة، وحصل على كأس أحسن لاعب في الجامعة سنة ١٩٦٦. كما كان كابتنا لفريق جامعة الخرطوم لكرة القدم ولعب لنادي التحرير لكرة القدم والسلة.

وقال إنه يضمن هذه الذكريات في كتاب تاريخ حياته الذي يكتبه في الوقت الحاضر.

العالم الثالث:

يقضي عبد الرحمن جزءا كبيرا من وقته في إطار عمله بمؤسسة «آيم» العالمية التعاونية لنقل التكنولوجيا. ويدرس التقارير، أو يستمع إلى شرح العلماء والمخترعين لآخر ما وصلت إليه التقنية المأمونة والمفيدة التي يمكن أن تحل مشاكل الدول النامية.

قال: «بعد ثلاثين سنة في مدينة بوسطن» حيث كان أستاذا مشاركا في خمسة كليات ومعاهد بجامعة بوسطن في آن واحد، ومنح الجنسية الأمريكية بدرجة «أستاذ فائق الامتياز» وفق تصنيف إدارة الهجرة، بسبب إسهاماته العالمية والأكاديمية، «قدمت دراسات لمؤتمرات قمة إقليمية وللأمم المتحدة والبنك الدولي ومحاضرات عامة وندوات متخصصة. وصرت مرجعا في تبصير الأقليات من عرب وأفارقة ومسلمين بحقوقهم، والفرص المتاحة لهم، وحل مشاكل الحياة، والمعتقلين، والمحتاجين، ومن تسيء السلطات معاملتهم.»

وقد وصف دليل منظمة التجارة والمعونات العالمية عبد الرحمن بأنه «قد وظف علمه لتحسين نوعية الحياة للأفراد والمجتمعات خاصة في الدول النامية والجماعات المهضومة والمهمشة».

وقال عبد الرحمن: «حلم عمري هو إنشاء معهد معرفي لاتصالات الإدراك الإستراتيجي الإنمائي متعدد المسافات يكون الأول والوحيد من نوعه في العالم لأنقل ما نلت من معرفة للأجيال التحولية القادمة التي تمكن «العالم الثالث» من النهوض والتطور والزيادة، قبل أن أفارق هذا العالم».

وأضاف: «الفشل والإحباط الذي يعيشه «العالم الثالث» ناجم عن أخطاء جسيمة في إستراتيجيات ومناهج وأساليب التعليم والتعلم والدراسة وإهدار الطاقات العقلية النادرة والفشل في التخطيط الإستراتيجي السليم».

محمد المهدي المجذوب:

وعن ذلك يقول «ظلت مشاريعي، التي تستنزف جل جهدي واهتمامي المباشر، تنحصر في مجالات ترتبط بمعاناة السواد الأعظم من أهل «العالم الثالث». ومازالت تطن في أذني كلمات الصديق المرحوم أشعر العرب، محمد المهدي المجذوب، منذ أن سمعتها في باكر صباي، وتظل الصور تتراءى ليل نهار، تجسد نزيف النفس ومعاناة الروح».

انشد المجذوب:

لهفتا كم عصف البؤس بأطفال صغار
وردوا المولد بالشوق وعادوا بالغبار
ويح أم حسبوها
لو أرادوا النجم جاءت بالدرارى
ويحها تحمل سهد الليل في صحو النهار»

النوبة ومشاهيرهم:

لعبد الرحمن اهتمام خاص بمنطقة النوبة، وبمشاهير النوبة:

أولا: يعمل في دول العالم الثالث في مجالات كثيرة، منها القضاء على الملاريا والبلهارسيا والأمراض التي تنقلها المياه فتتسبب في ما يفوق ٨٠% من أمراض العالم الثالث ووفياته. وقال إنه يتمنى أن تبدأ تجارب جديدة في هذا المجال في منطقة النوبة «المهضومة، مهد الحضارة البشرية» عن طريق تحالف تعاوني في مؤسسة «أيم» العالمية التي يعمل معها.

ثانيا: يعمل على نشر قصة حياة واحد من أعظم مفكري ومناضلي القرن العشرين والأب الشرعي لحركة الوحدة الأفريقية والأفرو آسيوية والتحرر السياسي والإنعتاق الاقتصادي: ديوس محمد على الفوراوي النوبي. وقال: «كان لي شرف تسليط الضوء على تاريخه الغني بعد أن نسيه التاريخ وهضمه المؤرخون وجهله السودانيون».

ثالثا: يعمل في إكمال موسوعة عن إسهام السودانيين في تاريخ العالم. وقال: «من ضمن ٢٧ علما في التاريخ الإنساني من أصول سودانية، وجدت، مثلا، مايدل على أن الإمبراطور هونج وو، مؤسس أسرة المنج في الصين، كان نوبيا. وتذكر بعض المصادر الأسبانية أن جيوش طهراقا النوبي غمرت شمال إفريقيا، ووصلت إلى أسبانيا، حيث أسبغوا عليه لقب «إمبراطور العالم».

عائلته:

وعن سبب اهتمامه بالنوبة، قال أن أسرة أبيه، الحاج إبراهيم البربرى، من كوكة، بالمحس، ولكنه ولد، بقسطل، فكنى بالبربرى. أما جده لأمه فمن نوبيى الدر.

وعن عائلته، قال أن زوجته عاتكة، «أعظم زوجة» والتي ظلت سنده طوال السنين، دنقلاوية. وأولاده تامر، وإيهاب، وابنته لينه، وولدو جميعا بأمريكا.

وعن رأيه في أميركا بعد ثلاثين سنة فيها، قال «إنها أرض الفرص والتأثير العالمي لمن يعرفوا كيفية الاستفادة من الأطر السائدة والتعامل بوعي إستراتيجي مع الوقوف بصلابة لإثبات الحق والاستحقاق.»

حوار الأديان:

وكان اشترك مع ثلاثة أساتذة مسيحيين ويهود، في تدريس مادة «نحو عودة الأصول للعائلة الإبراهيمية: قضايا الدين والهوية.»

هذه كانت أول مادة من نوعها تدرس في جامعة أمريكية. وأول مرة يشترك في تدريسها أربعة أساتذة معا في وقت واحد من جامعات ولاية ماساجوستس (مثل: هارفارد، وماساجوستس، وتافت، وبرنديس، وبوسطن). وأول مرة يسمح فيها للطلبة والطالبات من خارج كلية بوسطن الجامعية بدراستها. (يقال أن بوسطن وضواحيها عاصمة التعليم العالي في العالم لأن فيها ١٤٧ جامعة ومعهد دراسات عليا).

وقال عبد الرحمن: «تصحب الدراسة الأكاديمية مؤتمرات تحت شعار الآية القرآنية «تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم». وهو نفس شعار خطاب الأكاديميين المسلمين إلى بابا الفاتيكان. والحمد لله، وجدت الفرصة لأتحدث عن فظائع الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش ومصائب الاستعمار الغربي والكتب السماوية الحقيقية التي أعدمت. وأيضا لأطرح قضايا التحديث والعلوم والتكنولوجيا. وذلك من وجهة نظر إسلامية نادرا ما تتوفر في ظروف ما تسمي بالتقاليد المسيحية اليهودية التي تسيطر على الفكر الديني في الولايات المتحدة.»

***

تحديث:

يواصل بروفسير عبد الرحمن نشاطاته ومحاضراته. وزاد اهتمامه بالنوبة. وهذه مقتطفات من قصيدة عنهم كتبها مؤخرا:

صوتُ النوبةِ قد دَوّى ... يعلى الحقَ ويبعثُ فينا الفخر
فاحكى يا صوتَ النوبةِ ... عن عظمهِ قوم ٍ شم ٍكخلودِ النهر
فسّر للأجيالِ وللعالم ... معنى الحبِ الأزلي ِلأرض ِ التبر
أسّرد تاريخَ المجد ... فخاراً فى نصِّ الإنجيل وآيات ِالسفر
وأذكرَ آثام البطش ... نزيفا ساد عُقودَ الشدةِ والعُسر
وتَفّرق ِ شَملِ الأحبابِ ... شَتاتاً بالتهجيرِ الجبرىِّ وبُعدَ
أعوامَ جحيم ٍعدَمىٍّ ... جرّعنَا فيها الحنظلَ والعَلقمَ والمر
وضَياعُ تراثٍ كان نضاراً ... وقلائدَ عِز فى جيد ِ الدهر
لكن ياصوتى جَلجل ... أكد أن النوبةَ شعبٌ صلبٌ لايقهر
إزأر بجهير ِالصوت ... خَلودٌ أمتنا لن تفنى حتى الحشر
لن نركعَ؛ لن نتراجعَ ... أو نتنازلَ أبدا للغاصب ِ عن شبر
كالنخل ِالمُتَأصل ِ عُمقاً ... فى رَحم ِ الأرض ِ مديداً بالساق
كالبركل ِ زادَ شموخاً ... وتمددَ أوتاداً ضاربةً في أحشاء ِ
كعُروق ِ الكنداكةِ ... تسرى نبضاً دفاقاً فى صُمِّ الصخر